الشخصية

من الناحية الفسيولوجية

للدكتور ابرهيم ناجي

﴿ الشخصية ﴾ — ما هي الشخصية ؟ ! ان مشكلة الشخصية عند الفلاسفة تدور على حقيقة وجود الذات ، وهل هناك شيء ثابت يسمى الذات او الروح او النفس ؟ فوليم جيمس يشير الى ما يسميه تيار الوعي ويقول ان تجارب المرء الخاصة ، في سبيل ذلك المجرى ، تتوحد في احساس يُشعر بما يسمى بالذاتية Selfhood والفلاسفة الحديثون امثال مير تجتون وبرنجل بتيسون ، وبرادلي ، يؤمنون بحقيقة الذات ، ويبرهنون على ذلك في بحوث طويلة ، وينقسمون مذاهب لها مريدون واشياع

ومن وجهة الاجتماعية ، يعرف العالم لوران Barrent الشخصية بانها صفة التفرد والنزعة الخاصة origination ، ولست ذا شخصية مطلقاً حتى يكون لك اسلوبك الخاص ، فان كنت اديباً فلا يهم أن تقرأ أو تلاحظ ، أو تنقد ، وانما المهم أن يكون لك تفكيرك الخاص واسلوبك الذي تتفرد به وتتميز ، وان كنت سياسياً ، او زعيماً وطنياً فالمثل الاعلى هو فاندي فلطريقته الخاصة في الدعوة ، وفي النضال ، وهو منفرد بعزله ، وحربه ، وشكله ، وقد تفرد اخيراً باسلوبه في الموت !

على ان الذي نحن بصدده الليلة ، والذي يهمنا من الناحية العملية هو وجهة نظر الاستاذ ماريون وتعريفه للشخصية بانها مرادفة للارادة المتحررة ، الارادة التي خلصت من العقبات ، والمناقضات التي تعترضها في افق العقل ، وتكبلها : الارادة التي تحررت بعد الموازنة ، والتمحيص ، وتقليب الرأي : الارادة المتزنة الهادئة الواثقة ، الماضية الى غرضها في اطمئنان وعظمة ، الارادة المتحررة لا الرغبات ، ولا الميول ، فما الرغبات والميول إلا سحب قلقة مضطربة غير ثابتة ، ملازمة للغرائز ، وما هي الا غمامة تتلبد في افق الروح ، ولا تمطرها !

الارادة المرادفة للشخصية ، المرادفة للشعور بالذات ، والكرامة ، والقوة ، هي غرض المربين ، وعماد الذين يعنون في تكوين امة من الامم وانشاء جيل قوي العزيمة متين الخلق

نريد ان نكوّن شخصيات قوية ، مع الاعتراف بأن المواهب الخارقة غير متاحة لكل فرد ، وانها شعل الهية من السماء تختار افراداً دون افراد غير اننا بدرسنا للعوامل المكونة للشخصيات

---

(١) من محاضرة القيت في جمعية الشبان المسيحية في القاهرة وقد تناول ابرهيم المصري الموضوع من الناحية النفسية ونشر بحثه في البلاغ

القوية وفهم الاسرار التي ادت الى بروزها ، والاشياء التي تضعفها او تكبلها او تلاشيها ، لنستطيع ان نفهم الجوانب الخفية في النفس ، ونغوص في اغوارها السحيقة لنبحث عن كنوز مختبئة ، فنسمو بانفسنا وبغيرنا ونبني اجيالاً قوية كاملة

اما العوامل النفسية في بناء الشخصية وقوتها ، فلي ان اذكر منها فقط ما يتعلق بدرسي ، فأقول ان ذوي الشخصيات البارزة تفردوا فيما تفردوا به بأنهم درسوا انفسهم ، ودرسوا النفس الناس ، واتقوا من المقارنة ، على نور الاخلاص التام ، وانتحور الكامل من الغرور ، الى رأي ، الى طريقة ينتهجونها في سبيل الكمال . والواقع ان درس النفس من اشق الامور فأغلب الناس ذوي الشخصيات العادية مفتونون بأنفسهم متحيزون لمعتقداتهم ، يضفون عليها الرائاً من العظمة ليست لها . ولذلك يقفون عند حد ولا يتقدمون ابداً بينما الآخرون يحثون في اغوار المنجم عن الماس ، فيبرزونه ويصقلونه حتى يصير خاطفاً للابصار ، ويتعهدون احسن ما فيهم كما يتعهد البستاني اجمل اشجاره بالري والتشذيب ، وبينما هم في ذلك الصقل النفسي ، يتشوقون نحو الكمال والتفرد ، يكون لذلك اثره في وجوههم ومشيتهم وحديثهم واشاراتهم

وانا لا نعلم على وجه من الدقة كيف تطبع الروح الجسد على هذا النمط ، ولكن الواقع اننا لا نكشف انفسنا بكلماتنا بل على الضد من ذلك تكلم لتدل قناعاً على حقيقتنا ، وعند ما نشيء او نشي ، او نأتي بحركة ما على غير قصد ، نكشف اخفى ما في طياتنا ، والاستاذ فولس على حق حين يسمي الجسد مرآة الشخصية ، ويريك في كتابه البديع[1] كل دقائق الشخصية في تلك المرآة

﴿ قامة ﴾ الشخص مثلاً تدل على مقدار الارادة والقوة الحيوية وضبط النفس وهي تضع الانسان في مكانه في الهيئة الاجتماعية وتدل على جلسه وعلى حرفته وقليلاً ما تخطيء ، فالجندي الذي ترك الجيش مثلاً نستطيع ان نميزه مهما تكلف غير مشيته على ان المشية مع ذلك لا تدل على قوة الذهن في شخص من الاشخاص

﴿ الصوت ﴾ الصوت لا يهم علماء ولا اختصاصه في الدلالة على الشخصية ولكن العلماء المدققين يعنون بشيء واحد ، ويسترعون انتباهنا له ، فيقولون انه يصرف النظر عن دلالة الصوت على انتماء امة من الامم واستحالة التقليد مهما طالت اقامة شخص غريب بين قوم لبسوا بقومه ومهما تعلم لغتهم واتقنها — كل هذا يقولون انه لا يدل على شخصية الانسان دلالة رنين الصوت الموسيقي the timber, instrumental sound of the speakers voice. فاننا نحتكم بضع نبرات one فتحدث لحناً حزيناً أو مفرحاً فاننا لو ارهفنا السمع قليلاً ، وعودنا آذاننا بالمرانة ، أمكننا ان نصيب في الحكم على كثير من الناس . مثلاً ، عرفت من عهد قريب رجلاً يتحدث بنغمة مختنقة متزنة بلا رنين ، وعند ما يحاول ان يقنعني تتغير

(1) Mirror of Personality

النغمة إلى صوت جاف كصوت المطلب ، وعلى الانطلاق كان يخيم الغموض والابهام على كل هذا ، فلم أكن مطمئناً اليه ، واستنتجت على الفور انه رجلٌ ذو روح مختنقة جافة مبهمة كآلة صوته وقد صدق ظني فيما بعد . كذلك تعرفت إلى آخر صوته كرنين النحاس فاذا بمعاملاته لاصحابه — على ثقافته وسعة علمه — هي الاخرى هذا الرنين وعينه

وثالث تعرفت اليه ، وكان لصوته رنة الناي الحنون ؛ فتبين لي بعد معاشرتي اياه ، ما استقر في اعماق روحه من الرقة ، والذوق الفني ، وحب الجمال ، والاحساس به

والخلاصة أننا بحرانة قليلة لا تخطىء تقدير الشخصية من نبرات الصوت

﴿ الايدي ﴾ اما اليدان فقد قرأت كتاباً للكاتب النمسوي المشهور ستيفان زفيج يدعى ٢٤ ساعة في حياة امرأة ، اجاد فيه وصف ، شخصيات الناس من إبليهم دون النظر في وجوههم ، وارآه في ذلك مصيباً كل المصاب فان اليد تدل على شخصية صاحبها في احدى حالات ثلاث رهي ساكنة ، أو وهي تشير ، أو وهي تصافح . اما الحالة الاولى فاهم ما فيها الزاوية التي بين الاصابع مجتمعة ، والمعصم . فقد ترى يداً تشابه يد النمر ، واخرى كمخلب الطير المفترس ، وثالثة لا تراها حتى تشعر بالقسوة الكامنة في صاحبها وغيرها تدلك على نبل الاصل ولا يمكن ان تخطىء مهما تقلب الزمان بصاحبها . اما الحالة الثانية وهي الاشارة فتدل بوضوح على مبلغ الاحساس والرشاقة ، والثقافة ، والعصبية

اما المصافحة فهي اوضح من كل هذا ، فهذا يصافحك من قلبه وهذا يدعك تصافحه ، وذاك يزج في يدك حربة لايداً وآخر يفلت يده بسرعة .... فلمسة اليد البسيطة الذي يدقق تكشف اغواراً سحيقة من الروح لايدري صاحبها انه مزق ستره ، بهذه المصافحة من دون ان يشعر

اما الجمجمة ، من تركيب الرأس والفك والعينين ، فهي بلا شك المرآة التي لا جدال في صحتها وصدقها . ولا سبيل إلى الاستفاضة اليوم فان الموضوع مفر بالتوسع فيه ولكني أقول عن الرأس ان الشائع ان الاذكياء هم كبار الرؤوس وهذا ليس بصحيح دائماً ، وان بروز الجبهة ايضاً دليل الذكاء وهذا ليس بصحيح دائماً وانما الصحيح ان الخط الممتد من الحاجب إلى مؤخر العنق في الاذكياء يكون مقوساً تقويساً كافياً ومتناسباً[1] وحافظاً لنسبة معقولة بينهُ وبين الخط الواصل بين الاذنين ، اما الناس ذوو الرؤوس المسطحة المضغوطة فليسوا على شيء من التفرد ولا الذكاء . اما من جهة العينين فقرب احداهما من الاخرى يدل على ضيق الذهن والحدة بعكس العيون البعيدة في الوجه الفسيح ، فهي تدل على العبقرية او على شبهها وهو الجنون ولعل اهم ما في العين هو الالق . البريق . النور الذي تشعه ، ويدل على الصحة والحيوية ، والقوة ، والعصبية ، والاحساس بالحياة ، وما هو مضحك وغريب فيها

(1) Having a good sweep and symmetry

اما الفك ، فهناك الفك الضعيف الدال على الوحشية ، كفك الغوريلا ، والمتوسط القوة الذي لو تكلم لقال اني قوي وقادر على التغلب على اي عقبة كأداء صعوبتها ما كانت . والفك المنتهي الى ذقن شوهاء ، مدفونة في العنق ، تدل على تشوه خلقي بل على شخصية ضعيفة عاجزة

ان هذا الموضوع الشائق موضوع مميزات الجسد ودلالتها على الشخصية لا ينتهي وانني لاشعر اني امشي وراءه فهو يصرف عنايتي عن سواه من الامور التي اود بسطها اليكم

قلت ان الارادة القوية والشعور بالذات والكرامة غرض التربية فاذا صرفت النظر عن الناحية الروحية قلنا اننا نحتاج في تربية الشخصية الى سلامة الدم وسلامة الاعصاب وسلامة الغدد الصماء

﴿ سلامة الدم ﴾ نظرة واحدة ايها السادة الى مواطنينا الفلاحين تحزن وتبكي ، اذا لبثوا في القرى اصيبوا بالبلهارسيا والانكلستوما التي تسبب فقر الدم ، فيصاب الفلاح ضعف اعضاء الجسد ، فتضعف قواه ويبلد الذهن ، واذا انتقلوا الى المدن يهرتهم بلاهيها ، وصحيحها ولئيمها فتتلقفهم الامراض السرية وهم لا يعرفون عنها شيئاً ، فتنتقل الى دمائهم وتكمن فيها حتى اذا كبر الشاب شعر بأعراض مبهمة ذهنية ، او جسدية ، فاذا تنبه طبيبه الى تسمم الدم وجد انهُ يحمل نصيبه من جهل ابيه ، وقد لا ينفع الطبيب لكنهُ المرض . فيتغلغل في الجسم ويسري الى المجموع العصبي فينفث فيه سمه ويهدم الشاب في الوقت التي تنتظر منهُ كمال الشخصية ونضوجها ! فهل تريد شخصيات قوية مستقلة النزعة ، عنينا ان نعنى بالشباب ونحافظ على سلامة دمائهم ، ولا نكل عن محاربة ادوائهم

﴿ سلامة الاعصاب ﴾ نظرة اخرى الى المدن تحزن وتبكي . كلكم تسمعون عن ويلات المخدرات . ان المخدرات تهدم المجموع العصبي وتبيد الارادة ابادة . اي الشخصيات تكونون في شباب دائر القوى محطم الاعصاب ! اي شخصيات تكونون من هشيم تذروه الرياح ومن حطام مؤذن بالرواح ! تريدون شخصيات قوية انقذوا الشباب من آفته

﴿ الغدد الصماء ﴾ هنا اصل الى اهم الابحاث الجديدة . الى علاقة الشخصية بناحية كانت خافية ، فالقى عليها البحث الجديد اي نور قوي كشاف !

تسمعون ايها السادة عن الغدد الصماء ، فما هي ؟ هي غدد تفرز افرازاً يتصل بالدم مباشرة ، يسمى الهورمون Hormone وتتعاون الغدد معاً في حفظ توازن الصحة والخلق ، والذي يهمنا اليوم : الغدة الدرقية ومركزها تحت الحنجرة ، وغدة فوق الكلى ، والغدة النخامية ، وهي في الجمجمة ، والخصيتان في الرجل والمبيضان في المرأة . هذه كلها تتعاون معاً وقد تتعارض مفرزاتها كما تتعارض مجاذيف القارب ، ولكنها تؤدي كلها الى غرض واحد ، وتتآزر تآزراً قويماً مع المجموع العصبي في حفظ توازن الجسم ، ولا يمكن ان يختل افراز واحدة منها من دون ان يختل الآخر ، واذا اختل نظامها اصيب المجموع العصبي بضعف ظاهر ، ومن هنا أثرها في الشخصية

ومن العجيب الذي كشفتهُ الحرب ان الجنود الذي يصابون بما يسمونهُ صدمة القنابل ، يصابون بالنوراستنياء ويعقب ذلك اختلال في افراز الغدة الدرقية ، وصاحبتها غدة فوق الكلى ، وتتورمان ويزيد افرازهما ، وينقص افراز الخصيتين ، ويحدث ضعف تناسلي . فغدة فوق الكلى هي غدة الخوف والقلق ، فاذا ازداد هذان ازداد افرازها ومرضت ، وتبعتها صديقتها الغدة الدرقية ، فاذا رأينا رجلاً كهذا رأينا رجلاً سريع دقات القلب ، مرتجف الاطراف ، نحيلاً ، غزير العرق

اما عكسه ، الذي يقل فيه افراز الغدة الدرقية قلة مرضية وهو الذي اريد ان اتناوله اليوم في بحثي ، فطراز نراهُ كثيراً ، وهو طراز الشخصية البليدة الكسولة ، فاذا كان طفلاً صاح به ابوه كل ساعة وهو لا يدري ما علته — يدعوه الى الدرس ، وتضربه امه وتلقبهُ بالبليد — وما ذاب المسكين ، واذا كان رجلاً فهو بطيء الفهم ، قليل الجلد ، كثير النسيان ، يتكلم فيما لا فائدة فيهِ ، ولا يتحدث عن نفسه بشيء ، ولا يستطيع صب الفكر او الجهد على عمل ما ولا يعتمد عليهِ في شيء ويكسوهُ الشحم في امكنة خاصة ، فاذا كان رجلاً وجدت لهُ سمنام فوق ظهره كسنام الجمال واذا كانت سيدة اكتنز الشحم في ازدفين ومعظم الرجال يصابون بالصلع الباكر والشيب ، وسقوط شعر الحاجب ، وتكون حرارتهم دائماً تحت المتوسط الطبيعي . يجب ان نميز هؤلاء الاشخاص ، ولا نتهمهم بضياع الشخصية بل مسوغ فانهم يتحسنون بالعلاج اذا تناولوا خلاصة الغدد باشارة الطبيب

واخيراً هل لكل الامراض تأثير هادم للشخصية وهل كل ما يهدم الجسد يهدم الشخصية ؟ الواقع ان الشخصية اذا تم تكوينها ، لا يؤثر فيها المرض ولكن يحول دون تكوينها اذا لم يكن قد تم فعلاً . على ان هناك مرضاً واحداً لهُ تأثير غريب في الحيوية ، ذلك هو السل . اني اوجه انظاركم ايها السادة إلى العيون الواسعة البراقة الجميلة ، في المسلولين ، وإلى صفاء ذهنهم وجمال نفوسهم ، واذكر لكم ان الشاعر شيلر كان مريضاً بالسل ، ولكن ذلك المرض العجيب زاد ذهنه صفاء ، وعبقريته حدة . ثم ان توكسين السل منبه للقلب ، منبه للمجموع العصبي ، منبه للمجموع التناسلي ، يبعث الامل . ورحم الله شوقي حين قال

الى الحياة سكنت وهي مصارعٌ وإلى الامانيِ يسكن المسلول !

ولكن ذلك التنبه يتلاشى مع الاسف في وسط الدمار المريع الذي يحدثهُ المرض في طنيانه واذكر لكم ايضاً ان الشاعر كيتس مرض بالسل ومات بعد سنتين من مرضه انتج في خلالها جلّ انتاجه الخالد

ختام والآن كلمة اخيرة ! ان غاندي يضرب لنا مثلاً بصيامه ، في ان قهر الجسد ، الى حدٍّ محدود مساعد على تقوية الروح ، معظم للشخصية ، بينما الاسترسال في الاعتناء بالجسد وتدليله هادم للشخصية مضعف لارادتنا

اننا لا نستطيع ان نكون كلنا غاندي ولكن امامنا المثل السامي فلنسر على منواله والسلام